

دراسات في الادب الانجليزي

المذهب الواقعي وفن الدراما^(١)

بقلم محمد رشاد رشدي

في المسرح الاغريقي: أول ما يتبادر الى ذهن الباحث في هذا الموضوع أن يُنقَب عن الواقعية في عناصر الدراما الثلاثة: في الموضوع والأشخاص والأسلوب. غير أن نسبة الواقعية في كل من هذه الأجزاء قد تختلف نظرياً - أي فيما يكتبه نقاد المسرحين الفني المسرحي - عما يباشر عملياً فوق مسرح المصير. ولذلك رأينا من الأوفق في معالجة هذا الموضوع أن تلقى نظرة سريعة على النقد المسرحي تنبهاً بمطابقة هذا النقد للمسرح نفسه. والناقد الوحيد الذي نستطيع الاعتماد عليه في حديثنا عن المسرح الاغريقي هو أرسطو . . .

كتب (أرسطو) في رسالته عن الشعر يتحدث عن الواقعية في الموضوع قال: « يتضح مما سبق أن مهمة الشاعر هي أن يصف - لا الشيء الذي يحدث - بل الشيء الذي من المحتمل وقوعه - أي ما قد يكون ممكناً أو ضرورياً ». وعلى هذا فوحدة الموضوع إنما تنشأ من ببادئ الواقعية الأساسية؛ فحوادث القصة يجب أن يتصل بعضها ببعض اتصالاً ممكناً أو ضرورياً تتمتع ظروف القصة نفسها وجوهاً الخاص بها؛ وكتب هذا الناقد عن أسلوب القصة المسرحية، قال: « يمكننا الآن أن نرى أن على الكاتب أن يخفى نفسه حتى يستطيع أن يتحدث طبيعياً لا صناعياً ». ومن الجدير بالذكر هنا أن الأثر الذي يحدثه أسلوب (شكسبير) على المسرح لا يختلف واقعياً عن الأثر الذي يحدثه أسلوب (أوسكار وايلد) - أو (كوتجريف) أو (شريدان) أو (برناردشو). أما عن شخصيات الدراما فقد قال أرسطو: « من البدهي أن أشخاص القصة إما أن يكونوا أشخاصاً صالحين أو طالحين - ويتبع هذا أن بطل القصة إما أن يكون فوق مستوانا الخلق والاجتماعي، أو تحت

بين الأصدقاء، فكنت أقصد (مصر الجديدة) في الغالب لزيارة الشيخين وتجديد المهد بهما؛ فأقضى ساعات هي أمتع ما تكون للنفس، وأشهى ما يلد للعقل، ويقراً على شاعرنا ما استجد له من شعر

ما أنس لا أنس تلك الأيام السعيدة التي كنت أخرج فيها مولياً وجهي شطر (هليوبوليس) يحدوني الشوق الى تلك المبقرية الفياضة، والصفحة النادرة، والشخصية الفذة، فأجلس الى الشاعر، أتلقف من حكته، والتقط من درر فوائده وجواهر فرائده، وشاعرنا يحدث كما هو شاعر، يهدر كالسيل إن أقاض في الحديث، يصله يبعثه، ويزين مجلسه بطرائف الأخبار، وروائع الحكم، وأوابد اللح والمفاكهات؛ فلا تكاد تسأم له لهجة، ولا تمل منه لغة. وكان - رحمه الله - حريصاً على أن يكشف لنا عن صفحات القضية العربية في عهدنا الأخير ويجزدها بغير طلاء، ويجلو لنا حقائق التاريخ ناصحة غير مموهة، ويبعث فينا من روحه لمواصلة العمل والجهاد . . .

لقد كان شاعرنا ذخراً لأمته، ولكنه كان مضاعفاً تنكر له وطنه الأول كما تنكر له دهره، وظل وفياً لهذا الوطن بلاحي عنه مبهمة، على حين لم يجد منه طوال حياته غير الجفاء ونكران الجليل، ظل وفياً له حتى قضى نحبه. فلما قضى نحبه جثنا بعده نذرف الدمع عليه ناديين . . .

فاذهب كما ذهب الوفاء فانه عصفت به ريحاً صبا ودبور
(بغداد) كمال إبراهيم

خريج دار العلوم

تصحيح والنقح نظر

طلعت « الرسالة الفراء » في (العدد ١٠٣) على قرائها بمقالة عمدة في تحليل شخصية الامام للورخ (السخاوي) بقلم الأستاذ للورخ السيد محمد عبد الله صنان، فكان من حق الأستاذ علينا أن نشكره لمباحته الدقيقة، ومن فرض العلم علينا أن نبين للناس حفوات لم طامعين بفوه، لما اشتهر عنه من سعة علمه وعظيم حلمه

أورد الأستاذ في آخر مقاله المذكور أن صاحب (شفرات الذهب) يضع وفاة السخاوي (في مكة). وهذا سهو من الأستاذ لأن عبارة (شفرات الذهب) هي بحروفها: (وتوفى - بلهنية - المنورة يوم الأحد الثامن والعشرين من شبان، وصلى عليه بعد صلاة صبح يوم الاثنين ووقف بشه تجاه الحبرة الشريفه ودفن بالبيع بجوار مشهد الامام مالك) ج ٨ ص ١٧ فانكشف بهذا النص للفصل الواثق المحفوظ غير واحد من تقاطع الورخين أن من أربح وفاته في مكة قدوم، وجل من لا ينلظ

تذيل القاصفة محمد آل لأمير القسبة

(١) رجينا في هذا البحث الى رسالة الأستاذ ا. ه. دانيز، التي حاز بها جائزة Le Bas لعام ١٩٣٣ من جامعة كبروج

المال كبير عقاباً له وتاديباً وإظهاراً لاحتجاجهم وسخطهم .
تخلل هذا الشعور الذي تتأجج به نفس المشاهد ، وخلال
إحساسه بوحدة بلده وقوميته واتصال ماضيه بماضيه تقوى
حوادث القصة التاريخية على المسرح إحساسه هو بنفسه وكيانه
كما يقوى وجوده هو حقيقة القصة وصحتها ولونها الواقعي .
ومهما يكن في المسرحية التاريخية من شذوذ أو بُعد عن الامكانية
فإن لونها الواقعي يظل أقوى الألوان جميعاً مادام التاريخ يكسوها
ويظلمها بظله

غير أن هناك مأخذاً واحداً ، هو أن أبطال تلك المسرحية
هم دائماً أبدأً فوق المستوى الاجتماعي العادي

الدراما الرومانية : لم تتقدم (التراجيدية) عند الرومان عما كانت
عليه عند أسلافهم الأغبريق - إن لم تكن قد انحطت وضعت ؛
أما في (الكوميديا) فقد كتب الناقد اللاتيني (دوناتس)
ما يدهش له أقطاب الذهب الواقعي الحديث ، قال : « الكوميدي
هي امرأة الحياة البشرية » - وهو يذكر في موضع آخر أن
« الكوميديا » تصف أشخاصاً معينين تتكون حياتهم من
حوادث بسيطة طادية ، في حين أن (التراجيدية) تختار مسرحها
قاعات الملوك aulis regis الذين تتكون حياتهم من حوادث جسام
ذات أثر خطير ، وقد أصبحت مطابقة (الكوميديا) الرومانية
للحياة والواقع أمراً مشهوراً عند كل من قرأها ، فأسلوب
كاتبها (ترانس) و (بلوتس) هو أقرب أساليب الآداب
القديمة إلى اللغة اليومية ، كما أن جل أبطالها هم من الطبقة
الوسطى ، وحوادثها بسيطة طادية قد تقع كثيراً للقارىء
أو للمشاهد في حياته الخاصة

إلى هذا الحد كانت (الكوميديا) الرومانية تطابق الواقع ،
غير أنا نشاهد فيها اتجاهاً غريباً يتناقى مع صيغتها الواقعية
- وأعني به (تصنيف الشخصيات) - وينحو هذا الاتجاه
نحو اختيار مثل خاص لكل شخصية من الشخصيات . فلان
مثل خاص معروف به لدى كل كتاب المسرح ورواده - كذلك
لكل من المبد والأب والعاشر وكل شخصية يتكون منها
المسرح مثل خاص ؛ فلكل منهم أحداث خاصة ، وملابس
خاصة ، وصفات خاصة يترف بها الجميع ، حتى السب لونها

هذا المستوى - أو في نفس المستوى ومثلنا تماماً - غير أن من
يتأمل الدراما الاغريقية لا يجد فيها متسعاً لهذا الصنف الثالث
من الشخصيات التي هي في مستوانا ومثلنا تماماً - على أن ذلك
لا يمنع أن يكون للدراما الاغريقية الحظ الأوفر من الواقعية ،
وأن تكون بعيدة بمدى شاسعاً عن كل ما هو رضى أو مثالي .
وقد يبدو هذا مخالفاً للمألوف - غريباً - غير أننا سنحاول بسطه
وتفصيله

(التراجيدية) الاغريقية تمايل في مجموعها ماضى الاغريق
وأساطيرهم ؛ وهي لذلك يمكن أن تمتد في القصة التاريخية -
ويتضح قولنا هذا إن استعلمنا تصور جماعة المترجمين في مسرح
أثينا ، عند ازدهار الدراما وانتشارها . فقد كان هؤلاء القوم
على قسط من البداوة يسمح لهم بأن يمدوا كل ما نظمه الشعراء
من قصص الآلهة وأنصاف الآلهة تاريخاً قومياً لبلدهم وشعبهم ؛
وإن ما نراه نحن اليوم غريباً خرافياً في شعر أولئك الشعراء
مثل ظهور الآلهة على المسرح ، أو انبعاث الأشباح من قبورها ، لم
يكن هكذا غريباً أو خرافياً عند الاغريق الأوائل ، بل كان حقيقة
تروى وتاريخياً يقص - نسبة إلى دينهم وحياتهم وقوة خيالهم
الطفل - أما أن الدراما التاريخية هي أقرب أنواع هذا الفن إلى
الواقع والحياة فهذا مما لا ريب فيه - وقد كتب الناقد الانجليزي
(كولريدج) يقول : « لأجل أن تكون الدراما حقيقة تاريخية
يجب أن يعالج موضوعها تاريخ القوم الذين تمثل لهم وتقص عليهم ،
- ونحن إذا أقمنا النظر قليلاً وجدنا أن من الصعب أو من
المتعيل أن تنشأ لشعب طائفة وطنية ما لم يكن هذا الشعب
على علم - ولو خاطئاً - بتاريخه وتاريخ بلده - ومن هذا ينتج أنه
في الدراما التاريخية تكون الملاقة بين حوادث القصة على
المسرح وبين المترجم على مقعد قوينة متصلة أقوى منها في أى
نوع آخر من الأدب للمسرح . ومن المشاهد أن الكاتب المسرحي
يتوخى ذكر هزائم التاريخ وسقطات الأبطال وفشلهم ، فإن هو
ذكرها فإنا يذكرها مكروسة فلانوسى إلى نفس المترجم بأساً ولا
خيبة ، ولكن تشعلها حماسة ووطنية ، وإنا لنذكر حظ الشاعر
الأثيني البائس الذي بنى قصته على فشل (أثينا) البحري في حربها
مع (أسبرطة) ، فكانت النتيجة أن أومه قومه بدفع قسط من

نفسه من الضحك أو ذوقه من التفور عندما يسمع (كليبارة)
تودع قيصر قائلة : Good Bye, Caesar

فلأجل أن يكون الشاعر واقعياً يجب أن يكون الشعر في
عناصر قصته الثلاثة : في موضوعها وأبطالها وأسلوبها ؛ وإن
من يتأمل (شكبير) من كل نواحيه يتضح له أن الشاعر
الكبير كان إمام الواقعيين وسيدهم ، فهو بسمك شعراً ولكنه
شعر بصف الحياة أدق وصف - حياة الجسم وحياة الروح -
وأنت تحس وأنت تقرأه أن (ياجو) ما كان يستطيع أن يقول
غير ما قاله ، أو يفعل (عملت) غير ما فعله

ولقد قرأت قصة (مكبث) صراخاً ، فكنت في كل مرة
أقف مبهوراً أمام هذه السطور يحدث بها (مكبث) نفسه بعد
أن منته السحرات أمانهن الخلالة ، فأصبح في حيرة من أمره
وأضحى خياله ملتهباً ، وعقله مشتتاً :

« الخاوف الحاضرة أقل عناء من التخيلات الواسعة
البعيدة ، وإن عقلي الذي لم يقتل بعد كل القتل - يعصف هكذا
بكياني كله - حتى لقد قبر الفكر في الحلم والتخيل ، ولم يبق
كائناً أمانى غير كل ما هو ليس بكائن » . أقول إن شاعراً غير
(شكبير) ما كان يستطيع أن يعطينا وصفاً أدق من هذا ،
وأكثر مطابقة للواقع والحقيقة ، لو استطلعنا تأمل حالة (مكبث)
الذهنية وهو يلفظ تلك الكلمات - و (شكبير) دائم الجهد
في أن يصنع قصصه باللون الواقعي ، فتراه في أعظم قصصه
(التراجيدية) يدخل فصولاً وأشخاصاً مضحكة خفيفة ، تقرب
ما بين جو القصة وبين جو الحياة المادية - والآثر الواقعي الذي
ينشأ من هذا لا ينتج من أن الضحك والبكي يسيران جنباً إلى
جنب في حياتنا ، بل لأن اللون الواقعي في الشخصية المضحكة
أشد وأظهر منه في شخصيات (التراجيدية)

فالشخصية المضحكة هي في الغالب تحت مستواها الاجتماعي ،
ولذلك تخيل نحن إلى تصديق سمعتها والاعتقاد بوجودها أكثر
من ميلنا إلى الاعتقاد بوجود شخصية أو شخصيات فوق
مستواها ؛ ومن هذا كان (شكبير) يستخدم أهل الطبقة الدنيا
ليصنع الكثير من قصصه بلون واقعي ؛ فخذ مثلاً شخصيتي
حافري القبور في (عملت) ، والبستاني في (ريشارد الثاني) ،
وجاعة المقلين القرويين في (حلم منتصف ليلة صيف) ، وظهر

الإنساني وصفتهم الواقعية تكاد تكون معدومة على المسرح
الدرامة الإنجليزية في عصر شكبير : ازدهرت الدراما في هذا
العصر بأنواعها الثلاثة : التاريخية والبيئية والشعرية أو الغرامية .
أما النوع الأول فقد سبق أن تحدثنا عنه وسنتحدث الآن عن
اللون الواقعي في كل من النوعين الآخرين

بحسب الكثير من الناس أن الشعر يتعارض مع الحياة
والواقع ، وأن القصة الشعرية يجب أن تكون بعيدة كل البعد
عن الحياة ، وخالية كل الخلق من اللون الواقعي ؛ غير أن هذا
الظن - في رأبي - خاطئ كل الخطأ

وإن أوضح تعريف للشعر أن نقول إنه ترتيب تجارب الشاعر
في الحياة ترتيباً خيالياً عكس كل ترتيب آخر فكري أو فلسفي .
والشعر على العموم يأخذ شكلاً من تعبيرين : فهو إما أن يأخذ
شكل الاسطورة ، أو شكل المجاز والصورة ، أو شكل الأسطورة
والمجاز معاً . فشمس (ملتون) مثلاً يأخذ شكل الأسطورة ، وشعر
(ون) يأخذ شكل المجاز والصورة . أما في مسرحيات (شكبير)

المعظمي فالشعر في القصة نفسها - في الموضوع - قبل أن يكون في
الكلام والصورة - ونحن إن قصرنا الشعر على الكلام والألفاظ
ووجدنا منه موضوع القصة فاخترناه موضوعاً تريبياً مما قد يقع
كل ساعة وكل يوم كان الأثر الذي لا بد أن يحدثه القصة أترا
ضعيفاً بعيداً عن الواقع والحقيقة ؛ وليس معنى الواقعية أن تكون
القصة خالية من الشعر ، فوجود الشعر لا يمنع وجود هذا اللون ،
بل هو قد يقويه ويزيده نضرة ووضوحاً ؛ ويكفي أن يفكر
المشاهد في نفسه أنه لو حدث له مثل ما يرى في القصة أمامه ،
ولو كانت له من الصفات مثل ما للبطل نفسه فسيحدث الحادث
بنفس الطريقة ، ومثلما حدث للبطل تماماً . . .

وقد يمتعض البعض بأن اللغة الشعرية مجرد الكلام من
لونه الواقعي - ولكن من منا قد دهش لروميو يتحدث شعراً ،
أو (لهاملت) يناجي نفسه ويحدثها حديثاً ؛ لو أن (شكبير)
صاغه صياغة غير الشعر لجاء باهتاً ، ضعيفاً ، لا يؤدي معنى ،
ولا يحمل صورة . وإن من يقرأ قصة شكبير (أنطونيو
وكليبارة) ، ثم يقرأ بعدها قصة شو (قيصر وكليبارة) ،
والأولى شعر والثانية نثر - ليرى إلى أي حد استطاع شكبير
أن يكسو القصة بشعره لوناً واقعياً قوياً ، في حين أنه لا يتالك